دانييل غلاتّاور

لن
تشعر
بها

رواية

دار نشر بول تسزولناي

الفصل الأول

الصور الأولى

نرى طاولة شرفة، مغطاة بقماش مشمع بلون الفانيليا، تحيط بها الجدران الحجرية لمنزل ذي طراز ريفي في ضوء مصفرٍّ دافئ. وراء ذلك

تتعرّج شرائط الزينة الخضراء الداكنة من الأشجار المصطفَّة عبر المناظر الطبيعية المتلألئة بفعل الهواء الخفاق. في الأمام يمينًا تهيُّج صغير – تدخل تجميلي بسيط في الطبيعة، مستطيل لازوردي حاد خاطف للنظر، حوض سباحة. خلفه ترتفع التلال المتموجة بنعومة مع صفوف كروم النبيذ التي أبهتت خضارَها حرارةُ الصيف، إلى جانب لون الأرض البني الفاتح المنطفئ. إلى اليسار منظر شاسع يمتد حتى الأفق، حيث تتعانق السماء المتعطشة للحياة مع البحر التائق للمغامرة، متداخلان معاً في خطوط زرقاء جزلة. شيء لا يمكن أن يبلغه أي عرض دعائي. هذه هي توسكانا، بكل أصالتها. وفي الزمن الفعلي.

على الشرفة

الآن نتعرف على ضيوفنا في العطلة، بدءاً من الأطفال الأربعة. لوتِّه وبنيامين يلعبان على المنحدر، كلاهما في التاسعة من العمر. لوتِّه هي الابنة الصغرى لعائلة شتروبل–مارينيك، وهي التي تقود المشهد، ليس فقط بالنسبة لبنيامين، بل للمجموعة بأكملها. فإذا شعرت لوتِّه بالارتياح، عندئذٍ يمكن أن تكون العطلة رائعة. عندئذٍ فقط.

أما بنيامين فهو ابن عائلة بيندر، ويعتبر طفل سهل المراس. تصرفاته لا تنم عما إذا كان يتقبّل كل شيء، أم أنه فعليًّا يحب كل شيء. فهو لا يظهر أي تفضيلات، ولا يرغب في اتخاذ أي قرارات، ويأخذ الأشياء كما تأتي، وكما تجري، وكما هي إذا ما بقيت لفترة من الوقت. ينطبق هذا كذلك على الناس، على كل الناس، لاسيما لوتِّه. لقد بحث الطفلان عن بعضهما البعض، ووجد كل منهما الآخر. لوتِّه بحثت، وبنيامين وُجِد.

كانت صوفي لويزه مقرفصة على دكة حجرية، وتتصفح مواقع الإنترنت. هي في الرابعة عشرة من عمرها، أي في سن الرشد، حسب اعتقادها. كبرى أبناء عائلة شتروبل–مارينك تعيش بالفعل في عالم البالغين الخاص بها، الذي لا علاقة له بما تريد العائلة أن تضعه نصب أعينها باستمرار. كل ما هو في الخارج يختفي بالنسبة لها، مادام هناك شيء بالداخل – داخل شبكة الإنترنت. إن كل ما تراه صوفي لويزه لا يبعد أكثر من ثلاثين سنتيمترًا عن مرمى نظرها، وإن واقعها ينعكس عالميًا على شاشة هاتفها الذكي. لكنها تعتبر أنها تتفوق على والديها وعلى ممثلي المدرسة القديمة الكثيرين، الذين لا يختبرون إلا ما يمكن شمّه، وتذوقه، ولمسه، والذين يزعمون أن هنا والآن هو دائمًا وحصريًّا، حيث يتواجدون في تلك اللحظة مكانيًا.

تختلف صوفي لويز على نحو لطيف عن ثمانين بالمائة ممن في نفس عمرها – فهي لا تعاند ولا تثور. لا، بل إنها باعتراف الجميع تقضي مراهقتها، بابتسامة ساخرةً. كما أنها تتتبع – حتى خلال مراحل الانفصال المؤلمة عن الإنترنت،

أثناء التواجد الموجع خارج شبكة الإنترنت، فيما يسمى بالتواصل الاجتماعي المادي مع عائلتها وأصدقائها – نوعًا من الرسالة التربوية. إنها تريد أن تُظهر لمن حولها ما هو مهم في الحياة، وكيف يمكن القيام بكل شيء بشكل أفضل. (سنتعرف على والدها عما قريب).

هكذا بدت لها الفتاة الرقيقة ذات البشرة السمراء المقرفصة إلى جوارها، تراقبها في خجل، كأنما جاءتها في الوقت المناسب. آيانا هي طفلة من عائلة لاجئة من مقديشو. قبل أربع سنوات، عندما كانت آيانا في العاشرة من عمرها، هربت الأسرة الصومالية من مخيم في إثيوبيا عبر الصحراء إلى ليبيا، ثم سيقت بعد ستة أشهر إلى جزيرة لامبيدوزا الإيطالية، حتى وصلت أخيرًا إلى النمسا، حيث مُنح أربعتهم – والداها وشقيقها عبد العزيز الذي يكبرها بعامين وآيانا نفسها – حق اللجوء، بعد فترة قصيرة نسبيًا.

تعلمت آيانا أن تتسلسل إلى داخل نفسها وتختبئ. من الواضح أنها تشعر بالضياع. أو على الأقل فإنها تعطي هذا الانطباع للجميع، أينما تواجدت. هنا في توسكانا، كانت تبدو، وسط جنة السائحين الأثرياء، أصحاب الثقافة الغربية والشعور باستحقاق المتعة، في غير محلها تمامًا. لا يسع المرء إلا أن يتساءل كيف انتهى بها المطاف هنا.

أما الآن، فقد صارت بالنسبة لصوفي لويزه – إذا جاز التعبير – هي شرط السفر. بدون آيانا، صديقة المدرسة التي كانت بحاجة إلى استدراك الكثير، لم تكن لتسافر على الإطلاق. وقد كانت مغامرة حقيقية من عائلة شتروبل–مارينيك أن تصطحب الطفلة الصومالية اللاجئة معها إلى الرحلة، أي تجريد آيانا من سترة الحَجر الضيقة لعائلتها المسلمة، وتحريرها مؤقتًا من غطاء رأسها، ووضعها في سيارة ليموزين على الطرق الوعرة التي ستأخذها في عطلة صيفية أوروبية حقيقية مع الطبقة الاجتماعية الراقية.

عرفت صوفي لويزه الآن مهمتها في العطلة. فهي تريد أن تطلع صديقتها على جمال الخير في العالم الغربي، وأن تعلمها شيئاً عن حياة أصحاب الامتيازات، التي تعد بالنسبة لها هي بالطبع حياة طبيعية. هذا هو سبب وجود الاثنتين هنا. وهكذا يمكن للبالغين أن يتنفسوا الصعداء، وأن يفترضوا أن الأطفال الأربعة سيحظون الآن بأسبوع كامل من شهر يوليو/ تموز، منشغلين بأمور هادفة مع بعضهم البعض.

جلس الأزواج الأربعة على طاولة الشرفة يتبادلون الحديث بحماس. لعلنا نراهم في أجمل لحظة في العطلة بأكملها، بعد طقوس كأس البروسيكو الأولى، على معدة فارغة بالطبع، حتى يتسنى له أن يفعل مفعوله. تبدو فرحة ترقب أول وجبة توسكانية معًا واضحًا على الجميع.

إنغلبرت بيندر، رجل قصير القامة مكتنز في منتصف الأربعينيات من عمره، هو المركز الاجتماعي لهذه المجموعة، ولكل مجموعة تقريبًا. يتمتع بالتواضع، وينثر الدفء والبهجة. ضحكته معدية، بغض النظر عن تقلب عوامل المرح، ولا تصبح صاخبةً هادرة إلا قرب النهاية،

عندما يكون الجميع قد ثملوا بالفعل، ويريدون الخلود إلى النوم. أما هو فلا، مستحيل.

من طريقة حفر يد إنغلبرت، مثل جرّافة حفّار، في الإناء المملوء بالزيتون على الطاولة، يمكن للمرء أن يدرك خشونة شخصيته.

في بيته في فيلس أم فاغرام بالنمسا السفلى، يتولى إدارة إرث إحدى عائلات مزارعي النبيذ، حيث يقوم على رعاية ستين هكتارًا من مزارع الكروم في أفضل المواقع، بينما كان في الوقت نفسه قد ارتقى بفضل زوجته إلى مصاف كبار مصنّعي النبيذ العضوي في النمسا.

أما ميلاني، فهي نحيفة، شقراء، نبيلة، شاحبة الوجه، تصغر زوجها ببضع سنوات. تصل إلى إناء الزيتون بطريقة مختلفة تمامًا، خمس مرات أبطأ، وعشر مرات أقل، وبتردد، ورشاقة، بطرفي إصبعين، وبشفتين مزمومتين. ميلاني تعتبر نفسها هي المسؤولة عن الشق الثاني من إرث ثقافة إنتاج النبيذ، المشترك بين آل بيندر، عن الثقافة.

كانت في الواقع تريد أن تصبح ممثلة، ولكن انتهى بها المطاف في مجال الإعلانات، وقد بلغت أدنى مستوياتها الشخصية بتتويجها بلقب ملكة المشمش لهذا العام في مدينة فاخاو – خلال تطلعها لأن تكون امرأة قوية متحررة، لا ينبغي الحكم عليها من خلال مظهرها الخارجي.

بعد ذلك أنقذت نفسها بالانتقال إلى مجال الفنادق. درست الإدارة الثقافية، ونظمت أولى فعالياتها الكبرى قبل أن يركض انغلبرت عبر أحد الطرق بين الحقول، ويمد ذراعيه إليها. سمحت لنفسها بالانجراف، بتردد، وبرشاقة، وبالتأكيد بشفتين مزمومتين. لولا حدائق كرومه، لكان في سيرتها الذاتية ربما مجرد ملحوظة عن علاقة غرامية عادية. ولكن هكذا نمّى كل منهما للآخر مهمة حياتية مزدوجة، مهنية وشخصية. ولكن بينما تبدو علاقتهما الخاصة كأسهل الممارسات، إلا أنها ربما تكون أيضاً الأقل شغفاً.

شخص من نوع مختلف تماماً يجلس أمامهم. لا يطيق الزيتون، على الأقل ليس من إناء يمد الآخرون أيديهم إليه، حتى لو كانوا أقرب المقربين إليه.

أوسكار مارينك رجل طويل القامة ونحيل في أواخر الأربعينيات من عمره، يمكن للمرء مشاهدته وهو يفكر، كيف يظل ينطلق كل مرة بحثًا عن وجهة نظر جديدة ومنعشة، بغض النظر عن الموضوع المطروح في تلك اللحظة.

إن جبهته التي تعلوها تجاعيد التشكك بشكل مزمن توضح لك أنه من حيث المبدأ لا يثق في أن أي رأي آخر، يمكن أن يرقى إلى رأيه الفكري. (لاسيما رأي ابنته صوفي لويزه، التي تتمتع مثله بفضيلة الجدال). وبما أنه يحاول جاهدًا حقًا أن يكون دائمًا الأكثر أصالة من بين جميع الحاضرين، وجب الاعتراف له بذلك.

في مكان عمله، بكلية العلوم الإنسانية في جامعة فيينا، كان هناك للأسف رؤساء كبار من ذوي العقول الجامدة، ممن حالوا دون حصوله على درجة الأستاذية، ما ترتب عليه تحول ملامح شخصيته الساخرة المبهجة، لتزداد سخرية وهزءًا. وقد تراجع كمحاضر إلى العمل في مشاريع بحثية أقل تحديًا، وحافظ على لياقته العقلية في حياته الخاصة، مما أثار استياء زوجته التي كانت تصغره بعشر سنوات.

إذا حولنا نظرنا نحو إليسا شتروبل–مارينك لنراقبها أثناء الحديث، فسنتعجب من رصانتها في مواجهة أداء زوجها العارف بكل شيء.

إليسا – شعر أسود قصير، وبشرة داكنة، ونظارات شمس ذات زوايا حادة، وجسد ذو بنية عضلية قوية – هي صديقة مقربة لميلاني بيندر منذ الصبا، وقد كانت دائمًا هي الأكثر صلابةً وحيوية بين الاثنتين. لقد مثلتا جنبًا إلى جنب في المسرح المدرسي، مسرحية "الليلة الثانية عشرة، أو

كما تشاء" لشكسبير. أثناء مشاركتهما في المظاهرات ضد اليمين، والتي أيقظت روح المناضلة اليسارية في إليسا، انعطفت ميلاني في منتصف الطريق، في لحظة، باتجاه ملكة المشمش، فغابتا عن أنظار بعضيهما مؤقتًا.

ظلت إليسا ملتزمة كناشطة بيئية ودرست علم البيئة والاستدامة.

أما ما أثبت استدامته بما يكفي – حتى بالنسبة للزواج وإنجاب الأطفال – فهو اللقاء مع أوسكار المحتال، الذي كان قد بدأ للتو في تدريس علم ثقافات الشعوب. عندما كانت صوفي لويزه في الثانية من عمرها، وحصل أوسكار على إجازة أبوة، بدأت إليسا مرحلة الصعود السياسية المهنية مع حزب الخضر. أما اليوم، وهي لم تكد تبلغ الأربعين، فقد أصبحت عضوة في المجلس الوطني، وتعتبر مرشحة واعدة لمنصب وزاري. ولكن الآن حان وقت العطلة.

إن نظرة واحدة إلى عيني إليسا تكشف أنها الأكثر احتياجًا لها من بين جميع الحاضرين.

بعض ما يقال

يقول إنغلبرت: "من حيث الطقس، ما كان لنا أن نبلغ أفضل من ذلك". لا أحد يعارضه، الجميع يأكل. فإن مذاق الطعام دائمًا ما يكون أفضل في البداية.

ومع ذلك يتدخل أوسكار، قائلًا: "لن يبقى الحال هكذا. في منتصف الأسبوع، سيتحول التيار إلى الجنوب، فتأتينا ليالٍ استوائية".

من بعيد، تطلق لوتّه صرختها الأولى التي تصم الآذان.

تسأل إليسا: "ما الأمر؟".

"نملة عملاقة."

فتصيح ميلاني: "يا بنيامين، أرجوك أبعدها عنها".

"لا!" – تصرخ لوتّه – "لا تقتلها".

فيقترح أوسكار: "إذن أرجوك أبعدها عنها حيّةً".

"لا!" – قد يكون ذلك أيضًا خطيراً جداً بالنسبة للوتّه. أما الحل الذي قد تطرحه، فهو تنويم الحشرة نومًا اصطناعيًّا عميقًا،

وإيقاظها مرة أخرى بعد العطلة. تذهب إليسا وتحرر الطفلة من الوحش، أو بالأحرى الوحش من النملة. تظل لوتّه مصدومة لفترة من الوقت، ولكن يمكن سماع أنينها يهدأ بالتدريج. ثم عندما تتمكن من الإمساك بقدم بنيامين الخاطئة، ودفعه من على المنحدر، تضحك مرة أخرى.

يمتد الحديث بعد ذلك طويلًا عن الرحلة. لقد وصلت عائلة بيندر وأوسكار والفتيات الثلاث في سيارتين – بعد قضاء ليلة في بارما – إلى وجهتهم قبل الظهر. أما إليسا فقد وصلت وحدها، وفي وقت لاحق. كانت قد غادرت بعد منتصف الليل، استقلت القطارات ثم الحافلة – مع استدامة عدم فهم زوجها. أما مبررات إليسا، فهي: أولاً، كان لديها موعد مهم في المساء السابق في الوزارة. وثانيًا، فإنها لأسباب أيديولوجية بيئية، لا تستطيع تحمُّل السفر إلى العطلات بالسيارات ذات محرك الاحتراق الداخلي.

يقول أوسكار: "هذا سخف".

"ما السخف في ذلك؟".

"بالطبع كان بإمكانك السفر معنا، بشكل طبيعي جدًا".

"تسعمائة كيلومتر في السيارة، هذا كثير جدًا".

"الكثير من ماذا؟".

"الكثير من النيتروجين".

يقول أوسكار: "هذا نفاق بيئي".

فيرد إنغلبرت: "المهم أننا وصلنا جميعًا بأمان"، مشجعًا المجموعة على رفع كؤوسهم. لكن هذا لا يجدي.

تتساءل إليسا: "ما هو النفاق البيئي؟"

تنضم عندئذٍ ميلاني للحديث: "كما نعلم جميعًا، ليس الناس هم مَن ينبعث منهم النيتروجين، بل المحركات. البيئة لا تهتم إن كان في السيارة أربعة أو خمسة أشخاص".

"ألا تفهم الأمر يا أوسكار؟ إليسا لا تريد أن تجعل من نفسها أضحوكة. إذا نُشِر في الصحيفة أنها ذاهبة في رحلة برية إلى توسكانا مع عائلتها، فسينزلون عليها بعواصف من الهراء".

تتدخل صوفي لويزه من مسافة أبعد قائلةً: "أبي، كن سعيدًا أنها لم تأت بالدراجة".

تقول إليسا ضجرةً: "لا يسعني أن أعظ بالماء، ثم أشرب أنا الخمر. الأمر لا يستقيم، ببساطة".

يصيح إنغلبرت: "هذه هي الخلاصة. أنا أؤيد الوعظ بالنبيذ وشرب النبيذ. نخبكم يا أعزائي. رائع أننا جميعًا هنا".

تلح صوفي لويزه: "هل يمكننا أخيرًا الذهاب إلى حمام السباحة الآن؟". ليس بعد. لا تزال الشمس مرتفعة للغاية. لم يتمكن أيٌّ من الكبار الثملين من النهوض من على مقعده. أما الصغار فلا يعتقد الآباء والأمهات أن بإمكانهم التعامل في المحيط الجديد بعد.

كان إنغلبرت قد فتح للتو زجاجة ثانية من نبيذ فيرناتشيا دي سان جيمينيانو، وأخذ يقارن النكهات، ولعبة تدوير النبيذ في الحنك، ثم طرده ومقارنة خصائص مذاقه بخصائص مذاق نبيذه العضوي البكر.

يعارض أوسكار كلما سنحت له الفرصة. لا يمكنه استيعاب "لعبة تدوير النبيذ في الحنك" على الإطلاق.

يقول :"المسألة في الأساس، تتعلق بلعبة التدوير في الدماغ، ولا شيء غير ذلك، إذا أردنا الصدق. فإن حياتنا بكاملها، لولا حالة السكر المتكررة، لما كانت تطاق".

لكنَّ أحدًا لا يريد مناقشة ذلك الآن، حقًا.

تصيح إليسا بعيدًا: "آيانا، هل أنت بخير؟".

فيجيء الرد بصوت هزيل: "نعم".

"هل أنتِ بخير؟".

"شكراً. وحضرتك؟"

"يمكنك مخاطبتي بأنتِ ببساطة. اسمي إليسا".

"شكراً ".

يقول إنغلبرت: "إنها حقًا فتاة لطيفة، وخلوقة جدًا، لدرجة أنك لا تشعر بها على الإطلاق".

وتثني عليها ميلاني، قائلة: "كما أنها صارت تجيد الألمانية بالفعل".

فيعلق أوسكار: "على الأقل تجيد قول "شكرًا"، فهي لم تنطق بأكثر من ذلك".

وتقول ميلاني: "على العموم، أعتقد أنه فعل رائع منكم".

"ما هو؟".

"كونكم اصطحبتم طفلة لاجئة معكم. ولو اقتصر الأمر على ما فيه من رمزية".

فيسأل أوسكار "رمزية لماذا؟".

"رمزية لـ ... أن ... أنه حتى المحرومين من الفرص، قد يحصلون على فرصة يوماً ما. فإن كل شيء موزع بشكل غير عادل على الإطلاق. ما ذنب الطفلة إن كانت قد ولدت في مكان ما بمجاهل أفريقيا، وليس في ... في ..."

"في فيينا–دوبلنغ"، يضيف أوسكار.

"نعم، تمامًا".

"هل يمكنني أن أقول شيئًا عن ذلك؟ لكنكم لن تحبون سماعه".

فتصيح صوفي لويزه من بعيد، حيث تحضر المحادثة بنصف سمعها: "إذًا احتفظ به لنفسك يا أبي".

فتتوسل إليسا: "ليس الآن يا أوسكار، فما لبثنا أن وصلنا. أعطنا متنفسًا، من فضلك".

"حسنًا، لن أقول أي شيء بعد".

يسأل إنغلبرت: "كيف نجحتم أصلًا في اصطحاب الفتاة؟".

يتطلب ذلك المزيد من التفسيرات المستفيضة.

من يقرر، من يُسمح له

ظلت آيانا عامًا كاملًا تجلس في صف صوفي لويزه في المدرسة، من دون أن تُسأل، أو تُختبر، أو حتى تُعطى أي علامات، لأنها لم

تكن تفهم سوى جزء بسيط من المحتوى كله. في الوقت نفسه، كانت تحضر نظريًا دورة للغة الألمانية، إلا أن هذا لم يحدث أبدًا، لأن المعلمة كانت تعاني من المرض المستمر. لعله الإنهاك.

أما الآخرون فكانوا يتجنبون آيانا، وهي نفسها لم تكن تتقرب لأحد. لا يعرف أي تلميذ عنها أي شيء، باستثناء ما هو ظاهر، وهو أن غطاء الرأس الأسود يغطي شعرها الأسود، وجبينها الأسود، الذي يعلو وجهها الأسود.

على كل حال، فقد أصرت حتى نهاية السنة الدراسية على الامتناع عن ارتداء السراويل الرياضية القصيرة والقمصان الضيقة،

في صفوف التربية البدنية. كان ذلك بمثابة تمرد، ومناهضة للتمييز الجنسي، وهو ما أعجب صوفي لويزه. وقد كانت أول من أبدى اهتمامًا بأيانا على الإطلاق. وسرعان ما قررت أن تصطفيها لتصبح صديقتها المقربة الجديدة. فإنهما تصلحان ثنائيًا رائعًا للغاية، متباينتين على نحو صارخ،

يكاد يدعو بشدة لسلسلة من الصور على إنستجرام أو فيديوهات اليوتيوب. أما كارولا، صديقة صوفي لويزه المقربة السابقة، فيمكنها من الآن فصاعدًا أن تستخدم آلاف "الإعجابات" التي حصلت عليها، لتتملق شخصاً آخر، وتجعل من نفسها شخصًا مهمًّا في مكان آخر، بملابس المراهقات المبتذلة التي ترتديها.

بالفعل، سرعان ما أصبحت الفتاتان صديقتين، تقضيان ساعات طويلة معًا كل يوم، ليس ماديًّا طبعًا، بل في نفس القنوات، والمنتديات، وغرف الدردشة، التي قادت صوفي لويزه آيانا عبرها. كانت آيانا ممتنة لكل شيء، وكانت تشارك معها في كل شيء.

بدأ العد التنازلي للعطلة بالحوار التالي على الواتساب:

"هل تجيدين السباحة؟".

"كلا."

"ماذا؟ عليك أن تتعلمي السباحة! هذا مهم!!!".

"نعم، حسناً".

"هل تريدينني أن أعلمك ؟".

"نعم، رائع! شكرًا".

"إذًا تذهبين معنا في عطلة الصيف، هناك يوجد حمام سباحة".

"رائع. لكن بالتأكيد لن يُسمح لي بذلك".

"من قال هذا؟".

"والداي".

"لكن الأمر لن يكلفهم شيئاً، نحن سندفع التكاليف كلها".

"رائع. لكن لن يُسمح لي".

"ماذا ستفعلين طوال الصيف؟".

"لا شيء".

"ممتاز، إذًا ستسافرين معنا!".

"لن يُسمح لي. بالتأكيد".

"بلى، سيُسمح لك."

"؟؟؟"

"والداي سيتوليان الأمر".

"رائع. شكراً. لكن لن يُسمح لي".

اعتبر أوسكار ذلك المسعى فكرة مجنونة منذ البداية، فلم يكن مستعدًا لفعل أي شيء بشأن قضية عطلة آيانا. لكن إليسا، صاغت – تحت ضغط من ابنتها – رسالة دعوة ودية، تضمنت جميع المعلومات حول العطلة. كما أكدت ثلاث مرات على أن العائلة الصومالية لن تتحمل أي تكاليف، وأنهم سيعتنون بالطفلة الصغيرة جيدًا. بل إنهم يريدون تعليمها السباحة.

جاء رد فعل والدي آيانا قاطعًا: هي خارج الحسبان. بالنسبة لهم، لم تكن الدعوة تستحق حتى الشكر. استاءت إليسا لدرجة لا تسمح بإجراء محادثة شخصية. لذلك اتصلت بإدارة المدرسة، وحددت موعدًا مع المديرة، التي عينت بدورها إحدى المعلمات الثقات، لإقناع العائلة اللاجئة بفائدة وأهمية العطلة (بالإضافة إلى شرف قضائها) مع عائلة شتروبل–مارينيك (التي تحظى بالاحترام في جميع أنحاء النمسا) بالنسبة للطفلة، ولو اقتصرت فائدتها فقط على دروس اللغة الألمانية المجانية التي ستتمتع آيانا بها بصحبتهم. (أصرّت إليسا على أن يتم حذف العبارات الإضافية، مثل "شرف" و"تحظى بالاحترام في جميع أنحاء النمسا").

حسنًا، أبلغت أيانا كلًّا من المعلمة وصوفي لويزه بعد بضعة أيام ما يلي نصًّا: "شكرًا. لكن لن يُسمح لي".

بالنسبة لإليسا، لم تكن المقاومة والعناد بحكم عملها من الأمور الشائعة فحسب، بل كانت تعد محفزًا أيضًا. اتصلت بالمرشدة النفسية والاجتماعية، التي كانت آيانا ووالدتها تحضران إلى الجلسات العلاجية معها بانتظام، بسبب صدمة النزوح، وأقنعتها بقيمة العطلة المخطط لها.

أدى إقناعها إلى نجاح جزئي. قالت آيانا لصوفي لويزه حرفياً: "شكراً. يمكنني الذهاب. لكن لابد أن يأتي عبد العزيز معي". – عبد العزيز، أخوها الذي يكبرها بسنتين.

للأسف، لم يكن ذلك مقبولًا أبدًا بالنسبة لإليسا وصوفي لويزه. مراقب مسلم ذكوري من القرون الوسطى، يراقب على مدار الساعة التزام أخته بواجب الحجاب وبتغطية جسدها بالكامل، وانضباط نظرات عينيها، هو آخر ما يمكن أن يحتاجه أحد في توسكانا، وتحديدًا آيانا نفسها، التي ستخضع عندئذٍ لنفس القيود التي تخضع لها داخل جدرانها الأربعة.

كان الأمل الأخير هو ورسمي، طباخ صومالي حاصل على الجنسية الألمانية، في أوائل الثلاثينات من عمره، كان كثيرًا ما يُستدعى للترجمة الفورية، ويُفترض أنه على اتصال وثيق بعائلة آيانا. خلال مكالمة هاتفية مع إليسا، بدا متشائمًا:

"بدون الأخ لن يحدث. إن الأب يخاف جداً على ابنته. لكن يمكنني المحاولة".

يبدو أنه وجد الكلمات الصحيحة في النهاية، حتى أن آيانا أخبرت صوفي لويزه بعد بضعة أيام:

"شكراً. ربما يُسمح لي!". ولكن فقط بالشرط التالي:

"يجب أن يأتي والدك أو والدتك للتحدث".

كان الأب قد انسحب من أول الأمر. إلا أن ما أرادت إليسا تفاديه منذ البداية أصبح فجأة أمرًا لا مفر منه. كان عليها أن تقوم بالرحلة عبر نهر الدانوب إلى حي معزول في ضواحي فيينا، يسكنه بالأساس لاجئون، حيث يتعين عليها بدء حملتها الشخصية للترويج لعطلة ترفيهية فاخرة مجانية لمدة أسبوع، مع كل وسائل الراحة لطفلة لاجئة.

تم استقبالها، أو بالأحرى اعتراضها بالفعل على الدرج. اتكأ هناك شاب نحيف ذو بشرة سمراء، وخلفه عمود أسود شبحي المظهر،
لا يظهر منه إلا العينان المكشوفتان، تلمعان من داخل ذلك الغطاء.

"مساء الخير، أنا والدة صوفي لويزه، وأنت بالتأكيد ..."

انحنى الشاب وتمتم بشيء ما، لعله اسمه – عبد العزيز.

لم يستمر اللقاء أكثر من ثلاث دقائق. تحركت "العمود" ببطء نحو إليسا، واقتربت منها بشدة، ثم وسَّعت بيديها الشَّق المحيط بعينيها، لفحص نظيرتها بشكل أفضل وأكثر تدقيقًا.

أوضح شقيق آيانا: "أمي لا تستطيع التحدث، للأسف".
ثم فسّر: "تحدث الألمانية". لم يبدو هو نفسه متحمسًا للأمر. انسحب كلاهما على نحو مثير للدهشة إلى الحوار باللغة الصومالية. بدا عبد العزيز متوترًا إلى حد ما، وكان من الواضح أن رأيه مخالف لرأي "العمود".

تحديدًا عندما أرادت إليسا تحويل الحديث، الذي لم يكن قائمًا أصلًا، إلى موضوع العطلة، اقترب منها الشاب وبادر بتوديعها. انحنى وفعل شيئًا بيديه ينم عن الاحترام أو ربما حتى التديّن الشديد. ففعلت "العمود" من ورائه الشيء نفسه. وقد ظلّا مقتصدَين في الكلام. ربما جاءت كلمة "شكراً " مقتضبة. على أي حال، كانت إليسا سعيدة جدًا، إذ انتهت هذه الزيارة المزعجة.

في الشرفة سأل إنغلبرت:"وماذا كانت النتيجة؟".
فأجابت إليسا: "في اليوم التالي ردت آيانا بالموافقة".
"لماذا فجأة؟"
"لا أعرف، ربما أُعجِبوا بي. أظن أن الأب والأخ كانا ضد الأمر على أي حال، لكن الأم فرضت رأيها بطريقة ما، وهو ما لم يكن أحد ليصدق أنه ممكن. لعلها ذات يوم كانت تتمنى تعلم السباحة ..."
يتدخل أوسكار، قائلًا: "وهو الأمر الذي كان على الأرجح ممنوعًا عليها تمامًا، كامرأة مسلمة من شرق إفريقيا. هذا ما كنت تريدين إضافته".
تعارضه إليسا: "أنا لم أكن أريد أن أضيف أي شيء".

تأتيه لكمة جانبية من ميلاني: "لو كنت مكانك، ما كنت لأقول أي شيء في الوقت الحالي يا أوسكار. لقد تركت إليسا تفعل كل شيء بمفردها. بصراحة، أنا لا أقدّر فعلتك هذه".

يرد أوسكار: "كانت تلك مسألة مبدأ".

تريد ميلاني معرفة: "كيف تكون تلك مسألة مبدأ؟ أي نوع من المبادئ هذا؟".

"إنني أميل إلى رأي كانط هنا، في مقاله الذكي للغاية عن التنوير من عام 1784، أو هل كان 1785 ..." تنكمش إليسا في مقعدها وتغمض عينيها.

تتدخل ميلاني: "ليس كانط. بل أنت!".

"حسناً. أنا من رأيي أنه لا ينبغي إجبار الناس على أن يكونوا سعداء".

"ولكن يمكنك أحياناً أن تحرر الناس من قيود تعاستهم" – تعارضه ميلاني – "لاسيما، إذا كانوا لا يزالون أطفالاً".

"أنكر أنه يحق لنا ذلك. وأنكر أن تكون قيود الثقافات الأخرى من شأننا. لدينا ما يكفي من القيود الخاصة بنا. لكن كم من أشياء يفعلها المرء من أجل متعة ابنته الصغيرة أثناء العطلة". يقول أوسكار ذلك بابتسامة متعجرفة.

تصيح صوفي لويزه من بعيد: "كل شيء على ما يرام يا أبي؟ أنت لم تفعل شيئًا على أي حال".

يقترح إنغلبرت: "من فضلكم، هل يمكننا التوقف عن هذا العبث الآن؟ يا أصدقاء، فلتنظروا إلى المكان الذي نحن فيه هنا. دعونا نستمتع بهذا المكان المثالي، وتلك السكينة".

تنتظر لوتّه بضع لحظات، تأخذ نفسًا عميقًا ثم تطلق إحدى صرخاتها المُهابة. الخلفية: يبدو أن النملة الحمراء العملاقة، التي تم تطردها بوقاحة، قد بعثت إليها بإحدى أخواتها لأخذ الثأر.

"بنيامين! أبعدها عنها، رجاءً. بسرعة!".

تخترق صوفي لويزه جو الإثارة هذا، وتصيح: "أمي، هل يمكننا أخيرًا الذهاب إلى حمام السباحة؟ وإلا فلماذا جئنا إلى هنا؟".

ثم تكرر: "أمي"، بينما لاتزال إليسا منكمشة في مقعدها، مغمضةً عينيها، ملتزمةً الصمت.

"أمي ... مرحبًا ... سلام ... أين أنتِ؟".